تعقيبات

للأستاذ أنور المعداوى

لحظات مع الأستاذ العقاد فى كتابه « الله » :

جاء فى كتاب « الله » للأستاذ عباس محمود العقاد ما يلى :

« ولا يرى علماء المقابلة أن عبادة الشمس كانت معدومة فى أطوار الديانات القديمة ، ولكنهم يقررون أن « ديانة الشمس » لم تنتشر فى تلك الأطوار ؛ لأنها تستلزم درجة من الثقافة العلمية والأدبية لا تتيسر للهمج وأشباه الهمج فى أقدم عصور التاريخ الخ » ص (٢٩)

وإنى لآخذ من هذا القول ، وأعتقد أن ديانة الشمس كانت أكثر انتشاراً من غيرها فى العهد البدائى ؛ وذلك لعظم تأثير الشمس على حياة الهمج العامة ، وبخاصة تأثيرها على الزراعة ؛ إذ لا بد أن الهمجى قد لاحظ تأثيرها ولو بطريق الصدفة ، ورأى كيف أن نبتة عاشت تحت أشعة الشمس قد زانها الازدهار والنمو ؛ بينما الأخرى التى نمت فى الظلال قد أصابها الذبول والاضمحلال . أليس فى ملاحظة ذلك ما يدعو الهمجى إلى معرفة مصدر الخير وهو « الشمس » فيتجه إليها ويأخذ بعبادتها ؟ !

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فلا أعتقد أن هناك من يستطيع القول بأن الهمجى كان قليل الاهتمام بالطوارئ التى تحدث أمامه ؛ فلا يهتم للتغيير الذى تحدثه الشمس عند شروقها وغروبها فى طقس إقليمه ، بالإضافة إلى كونها هدفاً لأنظار الهمج على الدوام . فلا يعقل أن الهمجى كان يفترش أديم الأرض ، وينام ملء جفنيه دون أن يفكر فيما يجرى حوله وما يراه وما يحسه من التبديل الطارئ ، ثم لا يقارن بين الحالتين : حالة شروق الشمس وما تبثه فى الكون من الحركة والنشاط ، وحالة غروبها وما يتبعه من سكون وهجوع !

كل هذا يحمل على الاعتقاد بانتشار عبادتها فى ذلك الزمان . كما أنى لا أرى أن للثقافة العلمية والأدبية تأثيراً فى الأمر ؛ لأن الإنسان يستطيع أن يعرف حقيقة بعض الأشياء دون معرفة بعلم أو أدب ، كأن يحدث ذلك عن طريق الصدفة المحضة أو الإحساس الباطنى الذى يتخيل حقيقة الشىء فيدفع الإنسان إلى الإيمان به .

لهذا كله أرجو من الأستاذ المعداوى أن يكشف لنا عن الحقيقة فيما ذهب إليه الأستاذ العقاد وفيما أدليت به من رأى ، فقد أكون مخطئاً فى اعتقادى وبخاصة إن كان هناك شىء خفى على فلم أتبصره وفاتنى حقيقة معناه ... ودمتم سنداً لمحبى المعرفة وطالبى الثقافة الحقة .

(بغداد — العراق) عبد الرحمن محمد

أستاذ العربية بمدرسة الكرخ الثانوية

أشكر للأستاذ الفاضل جميل ثقته وحسن ظنه ، وأجيبه فى مجال التعقيب على قول الأستاذ العقاد بأن علماء المقابلة لا يرون أن عبادة الشمس كانت معدومة فى أطوار الديانات القديمة الخ ... أجيبه فى هذا المجال بأن هناك فارقاً بين « عبادة الشمس » و « ديانة الشمس » فى واقع الأمر وفيما ذهب إليه الأستاذ العقاد وهذا هو الشىء الذى غاب عن السائل الفاضل فلم يتنبه له .

إن القول بأن « ديانة الشمس » تستلزم درجة من الثقافة العلمية لا تتيسر للهمج وأشباه الهمج فى أقدم عصور التاريخ صحيح لا غبار عليه ؛ وذلك لأن العبادة شىء والديانة شىء آخر ... وإذا كانت العبادة لا تحتاج إلى شىء من الثقافة العلمية ؛ فإن الديانة تحتاج إلى مثل تلك الثقافة كل الاحتياج وأهمها الإحاطة ببعض الشىء بالعلوم الفلكية والحسابية . إن العبادة تقوم على أسس من الشعور بالتأليه والخضوع للإله ، أما الديانة فتقوم على أسس أخرى هى تنظيم هذا الشعور عن طريق إبرازه فى صور شتى من إقامة الشعائر وتقديم القرابين وبناء المعابد والمحاريب .

كلام الأستاذ العقاد إذن عن « ديانة الشمس » صحيح لا غبار عليه إذا قصرناه على الثقافة العلمية لا الأدبية . أما كلامه عن « عبادة الشمس » حين يقول إنها لم تكن معدومة فى أطوار الديانات القديمة فليس صحيحاً فى جملته ... إن عبادة الشمس مثلا فى العصر البليوليثى المتأخر لم يكن لها وجود على الإطلاق ، وهو العصر الذى عرفته الحياة منذ عشرين ألف سنة على وجه التقريب . فإذا انتقلنا إلى العصر النيوليثى المبكر وجدنا عبادة الشمس على

نطاق ضيق لا يكاد يذكر ، وهو العصر الذى عرفته الحياة منذ عشرة آلاف سنة قبل الميلاد . فعبادة الشمس كانت معدومة تماماً فى أقدم عصور التاريخ ، وكانت شبه معدومة فى عصر آخر أقل قدماً ، وهذا هو التحديد الذى يؤكده بالدليل المادى « ورنجتن سميث » فى كتابه « الإنسان المتوحش البدائى » ، ويؤكده بأدلة أخرى معنوية كل من العالمين الكبيرين « ج . ج . أتكنسون » فى كتابه « القانون البدائى » و « ه . ج . ولز » فى كتابه « معالم تاريخ الإنسانية » !

بعد هذا التحديد ، نعرض لشىء من التحليل والتعليل لظاهرة انعدام « عبادة الشمس » عند الهمج وأشباه الهمج فى أقدم عصور التاريخ كما ورد فى كتب هؤلاء العلماء الثقات ، لنرد به على الآراء الخاصة التى أبداها الأستاذ صاحب السؤال .

لم يكن الإنسان الهمجى فى أقدم عصور التاريخ يعرف لوناً من ألوان التفكير الذى يقوده إلى الكشف عما يجرى حوله من ظواهر الكون وأحداث الحياة ؛ لقد كان كل تفكيره محصوراً فى قليل من الأمور التى تهمه كإنسان يتجنب الخطر حرصاً على حياته ويسعى إلى اجتلاب الرزق ليستطيع أن يعيش . فأفق التفكير عنده كان مشغولا بمثل هذا الاجهاد الفكرى المتمثل فى طريقة الخلاص من حيوان مفترس قد يعترض طريقه فى الليل أو النهار ، وفى طريقة الحصول على حيوان أليف يهيئ من لحمه طعاماً يرد به غائلة الجوع ! ... ولقد كان قصوره عن التفكير المتغلغل فيما حوله من ظواهر وأحداث مرجعه إلى قصور اللغة التى تعد فى حقيقتها الدعامة الأولى لكل تفكير عميق . إن الرجل الهمجى فى العصر البليوليثى المتأخر لم يكن يعرف لغة تمكنه مثلا على أن يفكر لماذا تشرق الشمس فى الصباح ولماذا تغرب فى المساء ، ومن أين جاء ولماذا يعيش ؟ ! لقد كانت لغته هى لغة الحركات والإيماءات ، وكان فكره يدور حول تلك الأشياء التى تقع فى دائرة إحساسه الساذج الذى لا يفترق أبدا عن إحساس الأطفال ؛ لأن اللغة كما يقول « ولز » هى يد الفكر التى يطبق بها على الأشياء ويختزنها لديه إلى حين !

وليس من شك فى أن الرجل الهمجى فى ذلك العصر لم يؤت درجة من التفكير تهيئ له نعمة التمييز بين ما هو جماد وبين ما هو حى — لقد كان يرهب منظر النهر إذا ما تدفق وفاض ، ويخيفه رؤية الظلام إذا ما أطبق بجناحيه على الكون ، ويصف بجلده وشجاعته زئير حيوان مفترس أو حدوث رؤيا مزعجة تقض مضجعه . وكل تلك الأمور فى وهمه أعداء يخشاها كل الخشية ويأتى من الأعمال ما يستجلب به رضاها عنه وعطفها عليه !

ولدينا من الأدلة المادية ما يثبت أن تفكير الهمج فى العصر البليوليثى لم يكن يتيح لهم بحال من الأحوال أن يستشفوا ماوراء الظواهر الكونية ؛ فرسوم الإنسان حتى التى تنتسب منها إلى العصر البليوليثى المتأخر لا تقدم لنا أية إشارة إلى أنه كان يهتم أدنى اهتمام بالشمس أو القمر أو النجوم أو الأشجار ... لقد كان كل تفكيره مركزاً فى الحيوان والإنسان دون غيرهما مما يقع تحت حسه وبصره من شتى الصور والمرئيات !

ولقد يسأل سائل : ألم يكن هناك نوع من العبادة يحتل مكانه من نفوس الهمج فى ذلك العصر من التاريخ ؟ ونحن نجيبه بأن هناك نوعاً من العبادة كان له أبعد الأثر فى حياة الإنسان البدائى فى العصر البليوليثى وهو « عبادة الرجل المسن » ... لقد كانت خشية الرجل المسن وأثرها العميق فى نفوس أهله وعشيرته هى مقدمة الشعور الدينى عند الهمج البدائيين كما يؤكد ذلك « جرانت ألان » مقتفياً أثر « هربرت سبنسر » فى كتاب « تطور فكرة الإله » هذا الشعور الدينى الأول كان مبعثه إجلال الأهل والعشيرة للرجل المسن ، حتى لقد كان يحرم على كل فرد أن يلمس رمحه أو يجلس فى مكانه ! ومما كان يبث هيبته وخشيته فى النفوس ، ويبعث على احترامه وتقديره ذلك الدور الذى كانت تقوم به الأمهات فى توجيه شعور الأبناء نحو هذا الهدف المقدس !

هذا فى العصر البليوليثى ، فإذا ما انتقلنا إلى العصر النيوليثى لمسنا بعض التطور فى عقلية رجاله من الهمج وأشباه الهمج ... لقد بدأت مرحلة الرعى البدائى الذى يتطلب الترحل من مكان إلى مكان ، ولقد أجبر الراعى النيوليثى المترحل بحكم هذه الحياة الجديدة على أن يشحذ فكره ليدرك الاتجاهات المختلفة وانبساط الأرض كما أجبر على أن يهتم بالشمس فى النهار وبالنجوم فى الليل لأنها كانت أشبه بموازين يزن بها الوقت وتهديه إلى الطريق وترشده

فى تنقلاته ورحلاته . من هنا نبتت فى نفسه بذور لون من الشعور الدينى يختلف عما سبقه من شعور عند الإنسان البليوليثى ... إن توقير « الرجل المسن » هناك قد تحول هنا إلى توقير هذه الظواهر الكونية ممثلة فى اعتقاده بأنها أجسام ذوات أرواح وشخصيات تقدم له من الهداية والعون ما كان يقدمه الرجل المسن إلى أهله وعشيرته ! ولكن عبادة الشمس على الرغم من هذا كله لم تحظ بنصيب وافر من عناية الرجل النيوليثى حيث وجه جل عنايته إلى عبادة النجوم ؛ لأنها كانت فى رأيه أثبت دليلا من الشمس ! هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فقد كان للتعابين أثر كبير فى نفسه ترتبت عليه أن اضمحلت عبادة الشمس أوكادت لتحل محلها « عبادة الثعبان » ، وبخاصة فى تلك المناطق التى كان فيها للأفعى أهمية عملية خطيرة فى الحياة الإنسانية !

وهكذا ظلت عبادة الشمس شبه معدومة حتى أواسط العصر النيوليثى ، ولم يقدر لها أن تنتشر إلا يوم أن تشكل البشر فى مجموعات إنسانية تنتظم دولا مميزة المعالم موحدة الكيان ، هناك حيث توطدت أركان عبادة الشمس وديانة الشمس فى كل من مصر وبابل وفارس والهند واليابان .

وسط هيئة الأمم والديمقراطية الأمريكية :

يقولون إن فى أمريكا ديمقراطية ، ويقولون إن من مبادئ هذه الديمقراطية الأمريكية تلك المساواة بين رعاياها فى الحقوق والواجبات ... إذا لم تصدق هذا الذى يقال فاقرأ معى هذين الخبرين اللذين طالعتهما فى الصحف منذ أيام :

« حجز معهد الشرق الأوسط فى أمريكا حجرة فى فندق بارك لإجراء مباحثات خاصة بين خبراء شئون الشرق الأوسط غير أن خادم الفندق ما كاد يرى الدكتور رالف بانش بين هؤلاء الخبراء حتى انبرى له ومنعه من الكلام لأنه أسود ، ثم قررت إدارة الفندق إثناء حجز الحجرة وإعادة النقود التى دفعت لذلك إلى المعهد ، لأن الدكتور بانش زنجى لا يسمح له بارتياد مثل تلك الأماكن » !

هذا هو الخبر الأول الذى طالعته فى « المصرى » .

وإليك الخبر الثانى الذى طالعته فى « الأهرام » :

« صرح الدكتور رالف بانش لمندوب مجلة (كوليرز) الأمريكية بأنه رفض منصب مساعد وزير الخارجية الأمريكية الذى عرضه عليه الرئيس ترومان لأنه (أى بانش) لا يستطيع الإقامة مع أسرته فى واشنطن حيث يلقى الزنوج اضطهاداً شديداً على أيدى البيض » ! !

رالف بانش وسيط هيئة الأمم المتحدة فى المشكلة الفلسطينية هذا الشاب العظيم المثقف الإنسان الذى خلف الكونت برنادوت عقب أن اغتالته الأيدى اليهودية الغادرة ، هذا السياسى الممتاز الذى عرض عليه الرئيس ترومان منصب مساعد وزير الخارجية لكفايته ومواهبه ؛ رالف بانش هذا تحول بينه الديمقراطية الأمريكية فى شخص خادم وبين الكلام لأنه زنجى ، وتحول بينه الديمقراطية الأمريكية فى أشخاص أبنائها البيض وبين المنصب الخطير لأنه زنجى ... ترى كم علامة من علامات التعجب تكفينى لأثبتها فى ذيل هذا التعقيب ؟ أغلب الظن أن مئات الألوف منها لا تمكن أن تكفى لتعبر عما يجيش بنفسى من شتى الخواطر والانفعالات !

لقد كان الأمريكيون ينفقون من ميزانيتهم فى خلال الحرب ملايين الدولارات ليقنعوا الشعوب المضللة بتلك الحقيقة الفذة ، وهى أن الألمان برابرة متوحشون ، لماذا ؟ لأنهم يضطهدون جنساً يستحق الاضطهاد ، ويشردون جنساً يستحق التشريد ، ويحتقرون جنساً يستحق الاحتقار ، وأعنى به تلك الفئة من حثالة المخلوقات البشرية فى كل زمان وكل مكان ! ... قالوا هذا عن الألمان وهم يمثلون نفس المأساة ، وما أبعد الفارق بين جنس وجنس فى حساب الإنسانية وحساب الخلق والضمير ، نعم ما أبعده بين موسى شرتوك ورالف بانش فى مجال التمثيل بالفرد الواحد للألوف والملايين !!

دكتاتورية حين تصدر عن الألمان وديمقراطية حين تصدر من الأمريكيين ... وصفقوا ما استطعتم للديمقراطية الأمريكية المزيفة !

أنور المعداوى